دخول المذهب المالكي إلى بلاد الغرب الاسلامي أسباب ذيوعه وانتشاره

للأستاذ عبد الهادي الحسيسن

ان الاسلام لما دخل الى بلاد الاندلس مع الفاتحين الاولين ، دخل واضحا خاليا من الخلافات والتعقيدات ، مما جعل الاندلسيين يلتفون حوله ، ويقبلون عليه بتلهف ورغبة متزايدة ، حيث وجد فيهم استعدادا موروثا من ذي قبل .

وهنا نتساءل ، متى دخل المذهب المالكي الى بلاد الغرب الاسلامي، وعلى يد من دخل ، وما هي الاسباب في انتشاره ؟ .

يجيبنا على بعض هاته الاسئلة ابن القوطية لدى حديثه عن هشام بن عبد الرحمن الداخل (172 ـ 180 هـ) يقول : « رحل بعد عام من ولاية هشام ، زياد بن عبد الرحمن اللخمي فقيه الاندلس (ت 204 هـ) الى المشرق ، فلما سار بالمدينة ، وصل الى مالك بن أنس رحمه الله ، سأله عن هشام ، فأخبره عن مذاهبه وحسن سيرته ، فقال مالك ، ليت الله زين سماءنا بمثل هذا » .. (1) .

ويزيدنا عياض وضوحا في مداركه (2) فيقول : « ... أخذ أمير الاندلس هشام بن عبد الرحمن الناس جميعا بالتزام مذهب مالك ، وصير القضاء والفتيا عليه ، وذلك في عشرة السبعين ومائة من الهجرة في حياة مالك رحمه الله » .

---

(1) انظر كتاب « افتتاح الاندلس » لابن القوطية ص : 65 ، تحقيق الاستاذ عبد الله الطباع ط. بيروت . ابن القوطية : هو ابو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية ، توفي سنة 317 هـ .

(2) ج : 1 ص : 26 ط. وزارة الاوقاف .

أن الامير هشاما كان يوقر علماء المالكية ويقربهم اليه ، ويعظمهم ويفيض عليهم من عطاياه ، غير انه لم يعهد الى احد منهم منصبا كبيرا آنذاك.

أما سيادة المالكية في الاندلس تبدأ في الواقع بعد هيج الربض ؛ اذ ان الحكم بن هشام ، رجع الى الفقهاء المالكية ، واجتهد فى ترضيهم،وجعل لهم نصيبا في الحكم ، عليهم يتعاونون معه فى أمور الدولة ، وتبعه فى ذلك كل من جاء بعده من امراء بني أمية بالاندلس (3) .

ان أهل الاندلس ، كانوا فى القديم على مذهب الامام الاوزاعي واهل الشام منذ أول الفتح ، ففي دولة الحكم بن هشام ، انتقلت الفتوى الى رأي مالك ابن انس ، واهل المدينة ، فانتشر علم مالك بالاندلس ، وذلك برأي الحكم واختياره (3) .

لما جاء المرابطون وجدوا للفقه المالكي مكانة ملحوظة ، وللفقهاء المالكية سطوة كبيرة ، فثبتوا هاته المكانة ، وحافظوا عليها بسلطتهم ، لانهم هم انفسهم مالكيون .

بقي هذا المذهب المالكي ببلاد الغرب الاسلامي ، قائم الذات ، ثابت القواعد ، معمولا بآرائه وأقواله ، الى قيام دولة الموحدين ، التي حاربته وقاومته بكل ما لديها من قوة ، وبالاخص في عهد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي ، (ت سنة 595 هـ) الذي احرق كتب المذهب ونكل بأصحابه.

لقد صحب المذهب المالكي الاندلس ، وليدة ناشئة ، ثم فتية نضرة، فخلافة عملاقة ، ثم ضعيفة متهالكة ، فموزعة مقسمة ، ثم شاهدها تلفظ انفاسها الاخيرة .

وطوال هاته المدة ، كان المذهب المالكي وحيدا او قريبا من ذلك ، فقد وفدت على الاندلس مذاهب اخرى ، ولكن المالكية ظلت صاحبة القول الاخير الى زمن الموحدين ، ففي عهدهم سيحل بالغرب الاسلامي نوع من الضغوط القاسية ثم ستنكشف ، وتزول بعد انقراض الدولة الموحدية، ويعود المذهب المالكي منتصرا كما كان من قبل.

---

(3) انظر شيوخ العصر لمؤنس ، ص : 12 .
(3) نفح الطيب ج: 3 ص : 230 ، تحقيق د. احسان عباس .

المذهب المالكي ببلاد افريقية :

كمل اسلام افريقية – تونس – على يد اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، وذلك ان الخليفة عمر بن العزيز (ت 101 هـ) أرسل جماعة من التابعين يعلمون الناس ، ويفقهون أهل هذه البلاد الدين الاسلامي ، ولم يزالوا حريصين على تفقهم حتى تم اسلامهم .

كان المغرب لذلك العهد الاول من الفتح الاسلامي ، على مذهب السلف واعتقادهم (4) ، وباستيلاء العباسيين وسيطرتهم عنى ما كان بيد الامويين ، حل بدخولهم الى أرض المغرب المذهب الحنفي ، لانه المذهب الرسمي للدولة العباسية ، والسائد لديها ، والناس على قدم ملوكهم .

يقول عياض (5) : ظهر بافريقية ، مذهب ابي حنيفة ظهورا كبيرا الى قريب من أربعمائة عام ، فانقطع منها ، ودخل منه شيء ما وراءها من المغرب قديما بجزيرة الاندلس وبمدينة فاس .

ويقول في مكان آخر (6) : واما افريقية ، وما وراءها من المغرب ، فقد كان الغالب عليها في القديم ، مذهب الكوفيين ، الى أن دخل عليها زياد، ابن أشرس ، والبهلول بن راشد ، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك ، فأخذ به كثير من الناس ، ولم يزل يفشو الى ان جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين ، واستقر المذهب بعده فى أصحابه ، فشاع في تلك الاقطار الى وقتنا هذا .

وكان لدور القاضي أبي يوسف صاحب ابي حنيفة ، دور كبير فى نشر المذهب الحنفي ، اذ كان يسند خطة القضاء لاصحابه الحنفيين .

كانت القضاة من قبل ابي يوسف من اقصى المشرق الى اقصى افريقية ، لا يولي الا اصحابه ، والمنتسبين لمذهبه ، والناس سراع الى الدنيا على حد تعبير الامام ابن حزم الظاهري (7) .

---

(4) انظر الاستقصا للناصري ج : 1 ص : 96 – 101 – 136 ، ط. دار الكتاب .
(5) المدارك ج 1 ص : 65 ، ط. وزارة الاوقاف .
(6) نفس المصدر ص : 25 .
(7) نفح الطيب ج : 2 ص : 15 ، تحقيق د. احسا عباس .

لقد ارتحل أبو الحسن علي بن زياد التونسي (ت سنة 188 هـ) من بلاده تونس الى المشرق ، وبقي هناك يتلقى العلم عن رجاله ، وممن أخذ عنهم الامام مالكا ، فروى عنه كتابه «الموطأ » فنقلـه الى بـلاد تونس . فزياد هذا ، هو أول من أدخل الموطأ الى شمال افريقيا ، وهو الذي نشر فقـه مالـك بهـا (8) .

وعن زياد ، سمع أسد بن الفرات ، (ت 213 هـ) والفقيه سحنون ، (ت سنة 240 هـ) ، فلم يكن ببلاد المغرب العربي ، مثل زياد ، علما وعملا في عصـره .

وتستمر الرحلة العلمية من تونس الى الشرق ، فيخرج كذلك أسد ابن الفرات ، فيأخذ عن مالك ، ثم يذهب الى العراق ، فيروي عن أصحاب أبي حنيفة فقههم ، ثم يرحل الى مصر فيأخذ عن أصحاب مالك وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن القاسم العتقي (ت سنة 191 هـ) .

انصرف ابن الفرات الى تونس، بمدونته «الاسدية»،فنشرها بين أهل بلده ، فممن رواها عنه الفقيه عبد السلام سحنون ، ولم تمض شهور حتى ذهب سحنون نفسه الى الشرق ، رغبة في المزيد من المعرفة ، والتثبت من الروايات وتصحيح النصوص ، فيتصل كذلـك بابن القاسم بمصـر ، ليقابل عليه « الاسدية » التي أخذها عن صاحبها ابن الفرات .

يقول ابن خلدون (9) : « ارتحل سحنون الى المشرق ولقي ابـن القاسم وأخذ عنه ، وعارضه بمسائل (الاسدية) ، فرجع عن كثيـر منها ، وكتب مسائلها ودونها ، واثبت ما رجع عنه » .

عاد سحنون من رحلته العلمية « بمدونته » معينا فياضا من الفقـه المالكي ، وصوتا عاليا للحق ، وطاقة هائلة من الايمان والثبـات والخلـق المتيـن .

---

(8) انظر المدارك ج : 3 ص : 80 ، ط. وزارة الاوقاف . قد وجدت قطعة من رواية ابن زياد هذا « حققها » الشيخ محمد الشاذلي النيفر ، ط. تونس .

(9) المقدمة ص : 449 ، ط. التجاريـة .

تلقى الناس عن سحنون « مدونته » فنقلوها عنه، وعكف أهل القيروان على هاته المدونة ، واهل الاندلس على واضحة ابن حبيب ، ومستخرجة تلميذه العتبي (10) .

ولم يزل مذهب مالك يفشو الى أن جاء سحنون ، فغلب في أيامه وقضى على المخالفين ، واستقر المذهب بعده في اصحابه ، فشاع في تلك الاقطار الى وقتنا هذا (11) .

وسيصبح الفقيه سحنون فيما بعد ، من أكبر العاملين على تحويل اهل المغرب العربي الى المالكية ، بعد ان كانوا حنفية ، وشيعة .

ومن وقت سحنون ، سيعرف المغرب فقه مالك ، أعني علم الفروع ، وسينتشر فيما بعد ، مع مرور الايام في المغرب كله .

الادارسة والمذهب المالكي بالمغرب الاقصى :

لقد حل المولى ادريس الاول بالمغرب الاقصى سنة 179 هـ وذلك اثر وقعة « فخ » قرب مكة المكرمة التي جرت بين العباسيين والعلويين زمن موسى الهادي بن محمد المهدي بن ابي جعفر المنصور العباسي،سنة (169 هـ) والمذاهب والفرق على أشدها من حنفية ، ومالكية ، وأوزاعية، وشيعية ، وخارجية ، ومعتزلية .

يتبادر هنا سؤال ، ما حمل أدريس الاول معه من المشرق من هاته المذاهب ؟ كلنا نعلم ان الامام مالكا كانت ميوله السياسية مع العلويين،إذ كان يناصر يومئذ محمد النفس الزكية ، أخا ادريس ، حين قام بالدعوة للخلافة العلوية ، تلك المناصرة التي عرضته للمحنة والعذاب على يد العباسيين .

---

(10) عبد المالك بن حبيب (179 ــ 238 هـ) يعد من الموسوعيين ، وهو صاحب كتاب الواضحة ، كان هو ويحيى الليثي ، وعيسى ابن دينار افراس رهان ، كل واحد منهم له ميزته الخاصة . والعتبي هو محمد بن احمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي (ت سنة 325 هـ) . كان حافظا للمسائل ، جامعا لها ، عالما بالنوازل ، وهو الذي جمع المستخرجة وكثر فيها من الروايات .

(11) انظر المدارك ج : 3 ص : 45 .

ما أن اطمأن ادريس الاول لتدعيم أركان الدولة وتوطيد دعائم الملك ، حتى نهض للقضاء على ما كان بالمغرب ، آنذاك من مختلف العقائد الضالـة والديانات المختلفة ، وجمع الناس على عقيدة السلف ، ودعاهم الى العمل بمذهب مالك ، وكان يقول لهم نحن أحق باتباع مذهب مالك ، وقراءة كتابه « الموطـــأ » (12) .

من هذا نستنتج ان المغرب الاقصى عرف المذهب المالكي منذ عهد ادريس الاول ، وهو الذي استطاع ان يحمل الناس على ان يتخذوا مذهب عالم المدينة مالك بن انس مذهبا لهم .

والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولا بالاندلس ، ثم انتقـــل منهـــا الى المغرب الاقصى أيام الادارسة (13) .

تتحدث كتب التاريخ ان في سنة 189 هـ وفدت على الامـــام ادريس الثاني بمدينة فاس ، وفود العرب من بلاد تونس والاندلس ، وسر ادريس بوفادتهم وقربهم اليه ، وجعلهم بطانته الخاصة ، وأسكنهم معه في مدينتـه فاس ، واقطع كلا من الوفدين مكانا خاصا بهم يحمل اسمه الى اليوم ، عدوة القرويين ، وعدوة الاندلس .

استقضى ادريس الثاني من عامة الجالية العربية ، عامـــر بن محمد القيسي ، أحد تلاميذ الامام مالك الذي لازمه وأخذ عنه علمه .

وبعمل ادريس هذا ، يتم رسالة والده في نشر المذهب المالكي حين اختار عامرا لقاضاء مدينة فـــاس .

وهكذا يتبين ان هؤلاء الوافدين وضعوا اللبنات الاولى لبنـــاء صرح العلاقات الثقافية بين المغرب والقيروان من جهة وكذلك بينه وبين قرطبة من جهـــة أخـــرى (14) .

---

(12) هناك من يقول ان عبد الله الكامل روى الموطا عن الامام مالك ، وولده ادريس رواها عن والده . انظر تاريخ الجزائر العام ج : 1 ص : 251 ، ط. 2 لعبد الرحمن بن محمد الجيلالـــي .

(13) الاستقصـــا للناصـــري ج : 1 ص 138 .

(14) انظر « النفح » ج : 1 ص : 339 ، تحقيق د. احسان عباس ، وانظر معه النبـوغ ج : 1 ص : 114 .

بدأت فاس تستمد حضارتها في عهد مبكر من تونس ومن الاندلس ، لتضير فيما بعد ، مركز اشعاع علمي وحضاري ببلاد المغرب العربي .

لقد اسست في هذا العصر ، اعني عصر الادارسة ، اعظم جامعة علمية عرفها العالم ، وبالضبط سنة 245 هـ ـ 859 م على يد سيدة فاضلة،تدعى أم البنين فاطمة الفهرية القيروانية .

وان تأسيس هذا الجامع ، كان مبدأ الارتكاز للحياة الفكرية بالمغرب ومنه انتشرت المعارف والعلوم .

لقد فتحت القيرويين عيونها على مذهب مالك ، وعلى بقية من المذاهب الاخرى ، بيد أن سائر تلك المذاهب أخذت تتقلص شيئا فشيئا على مر الايام ، الى ان انقرضت نهائيا من المغرب الاقصى ، وسيخلفها المذهب المالكي ، الذي سيبقى هو السائد ، والمذهب الرسمي للمغرب الاقصى الى زمننا هذا .

لقد اسفرت الاسباب على تثبيت المالكية في بلاد المغرب الاقصى ، بسبب هجرة الاندلسيين والقيروانيين، لانهم كانوا مالكيين، ولان الادارسة احتضنوا مذب مالك ، ورفعوا لواءه في جامعة القرويين التي تعتبر حسنة من حسنات دولتهم .

ومما لا شك فيه ، انهم لم يكونوا من المعتزلة ولا من الشيعة الامامية او غيرها من باقي الفرق ، ولذلك فانهم لجأوا الى مذهب أهل السنة ، والى المالكية بصفة خاصة .

وعلى كل حال ، فان مذهب مالك توطد أمره في هذا العصر ، أعني العصر الادريسي كمذهب فقهي ، وكعقيدة ايضا، فان التلازم بين طريقته فى الفقه والعقيدة ، هي اتباع السنة ونبذ الراي والتأويل .

واذا كان المذهب المالكي قد عرف دخوله الى المغرب في عهد الادارسة ، فان انتشاره قد عم مدنه وسهوله وجباله وصحراءه على حد سواء ، زمن المرابطين ، على يد المصلح الكبير الفقيه الشهيد عبد الله بن ياسين ، الى أن ظهر ابن تومرت الموحدي الذي دعا لمذهب جديد .

وفي هذا الصدد يقول الناصري (15) : « واما حال المغاربة في الاصول والاعتقادات ، فبعد ان طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية اولا والرافضية ثانيا ، اقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم في الايمان بالمتشابه ، وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر ... الى ان ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة » .

نعم ، هذه العلاقات العلمية ، اخذت تنمو يوما بعد يوم ، انطلاقا من العهد الادريسي ، فبدات حركة الرحلة الثقافية الى القيروان وما اليها ، واصبح المغاربة يأخذون عن القيروانيين ، واكثر ما يأخذون الفقه المالكي بالدرجة الاولى .

واهم هؤلاء الذين خرجوا لهاته الغاية في هذه الفترة الفقيه ابو ميمونة دارس اسماعيل الفاسي (ت سنة 357 هـ) الذي يعد بحق أول من أدخل الفقه المالكي الى المغرب الاقصى ، اعني مدونة الفقيه سحنون،وبه اشتهر مذهب مالك هنالك (16) .

وممن ادخل كذلك مذهب مالك الى المغرب،عبد الله بن قاسم الاندلسي، نزيل عدوة الاندلس من فاس كان معاصرا لدراس بن اسماعيل (17) .

وهكذا تضافرت الجهود بين علماء المغرب في هذا العصر بالذات في نقل كتب امهات المالكية ، من الموازية لصاحبها محمد بن المواز ، ومدونة سحنون وغيرهما من أمهات علماء المذهب المالكي .

---

(15) الاستقصا ج : 1 ص : 40 ، ط. دار الكتاب .

(16) دارس بن اسماعيل ، كان من الحفاظ المعدودين والعلماء في المذهب المالكي ، ولما حل بالقيروان نزل عند صديقه العالم الكبير ابن ابي زيد القيرواني (ت سنة 386 هـ)، وعنه اخذ كتاب الموازية ، وعن ابي الحسن القابسي التونسي ، تكرر دخول دارس الى الاندلس مجاهدا في سبيل الله كباق العلماء الاتقياء الاعلام .
وفي سنة 357 هـ حل بمدينة فاس ابن ابي زيد القيرواني فوجد دارسا قد توفي في اليوم الذي وصل فيه ، فحضر جنازته ، واقام على قبره ثلاثة ايام ، ولما عزم على الرحيل الى تونس انشد :
قف بالمقابر للتوديع يا حادي   فان في جوفها قلبي واكبادي

(17) انظر الجذوة لابن القاضي 71 ، ط. دار المنصور .

وبعد الزحفة الهلالية على القيروان ، العاصمة العلمية آنذاك بتدبير المؤامرة من الفاطميين،سنة 443 هـ حيث خيم الركود على الحياة الثقافيةفى مجموع القطر التونسي ، انتقل مركز الثقافة الاسلامية الى مدينة فـــاس العاصمة الادريسية ، التي يصفها المراكشي اذ يقول (18) :

« ومدينة فاس هذه ، هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، اذ كانت قرطبـــة حاضـــرة الاندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان بعيث العرب فيها ، واضطراب أمر قرطبة باختلال أمر بني امية،رحل من هذه وهذه ، من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا ، فنزل أكثرهم مدينـــة فـــاس » .

وهكذا تصير فاس وارثة للحضارتين : القرطبية ، والقيروانيـــة ، وستحتفظ بجميع أصناف الوافدين عليها من العلماء وغيرهم ، وستصبح فيما بعد ، مركزا ثقافيا وحضاريا ، محتضنة المذهب المالكي الذي سيتمركز فيها وفي باقي جهات المغرب الى زمن الموحدين .

اهم الاسباب في انتشار المذهب المالكي ببلاد الغرب الاسلامي :

بعد ما عرفنا ان المذهب المالكي ، دخل الى بلاد الاندلس والمغرب الكبير ، بعد منتصف القرن الثاني الهجري ، في عهد صاحبه الامام مالك ، بقي علينا ان نبحث عن السر الذي يكمن وراء انسجام المغاربة مع هـــذا المذهب ، لا تتميز فيه طبقة دون أخـــرى .

ان هناك عددا من الاسباب ، تفسر لنا هذا السر في هذا الانسجـام وانتشار مذهب مالك في ربوع المغرب الكبير من أهمها :

1) انتساب الامام مالك لمدينة الرسول عليه السلام ، وسكناه بها ، ونحن نعلم عن تعلق المغاربة بكل ما يمت بصلة الى هذه المدينة المقدسة ، ولم يعرف في التاريخ عن مغربي حج ، ولم يقم بزيارة هاته الاعتاب المقدسة الا النادر القليل ، اذ هي العاصمة التأسيسية لاول دولة اسلامية اقامهـا الاسلام ، ومدفن الرسول الاكرم ومنطلق جحافل الفاتحين ، وموطن السلالة

---

(18) المعجـــب ص : 239 ، ط. القاهـــرة .

المباركة المنحدرة من المهاجرين والانصار ، ومجمع الكبار من فقهاء السلف الاعلام رضوان الله عليهم .

2) ان مقر اقامة الامام مالك الدائم هو بالمدينة لم يبارحها منذ ولد الى أن فارق الحياة ، الا للقيام بمناسك الحج بمكة المكرمة .

3) ان مالكا أكرمه الله بالعمر المديد ، والصبر الجميل ، والاخلاق العالية ، والتشبث في العلم ، فظل يدرس ويحدث ويفقه وينفح ويراجع ويصحح خلال مدة تزيد على الستين سنة ، ولم تعاجله المنية ، كما عاجلت بقية معاصريه الائمة الاعلام .

استمر يؤدي رسالته العلمية مدة يقرب من ثلاثين سنة بعد وفاة الامام ابي حنيفة (ت سنة 150 هـ) وثلاثا وعشرين سنة بعد وفاة الامام الاوزاعي (ت 157 هـ) وحوالي عشرين سنة بعد وفاة سفيان الثوري .

من أجل ذلك اتجهت الانظار كلها الى مالك ، واشرأبت اليه الاعناق من جيع الاقطار الاسلامية ، ولا سيما طلاب العلم من بلاد الغرب الاسلامي حرصا منهم على تحصيل السند العالي ، والاخذ مباشرة من المنبع الصافي .

4) مكانة الاحاديث النبوية المروية في المدينة المنورة على غيرها من العواصم الاسلامية آنذاك اذ هي لها شرف السبق على غيرها .

وخير دليل ، ما نجده في أبواب صحيح الامام البخاري الذي يبدأ بها أول الباب كلما وجدها ، ثم يتبعها بباقي أهل الامصار ، مالك عن نافع ، عن ابن عمر ، وهذا السند معروف بين المحدثين بالسلسلة الذهبية .

5) نظرا لبراءة مالك واصحابه من الشبه والبدع على خلاف بعض المذاهب الاخرى ، الذين جمعوا بين الانتماء لمذاهبهم الفقهية والانتماء لاحد الفروع الخارجة عن السنة .

6) رحل العديد من العلماء والفقهاء من المغرب ، للاخذ مباشرة عن الامام مالك ، ونجد العدد الكبير مثبوتا في مدارك عياض .

وكانت افريقية قبل رحلة سحنون ، قد غمرها مذهب مالك بن أنس، لانه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلا ، كلهم لقي مالك بن أنس وسمعوا منه ، هذا بالنسبة لرجال تونس ، ثم هناك جماعة أندليسية أخرى هي بدورها توجهت الى مالك بالمدينة للاخذ عنه مباشرة (19) .

ورحل في ذلك العصر جماعة من انظار شبطون ، كقرعموس بن العباس ، وعيسى بن دينار ، وعيسى بن ابي هند ، ويحيى الليثي وغيرهم كثير (20) .

7) صيت مالك العلمي والخلقي ، وانتشار فتاويه العلمية التي عملت على نشرها جماعة من تلامبذه الاولين الاعلام ، أمثال الغازي بن قيس ، (ت سنة 199 هـ) ويحيى بن مضر القيسي (ت سنة 188 هـ) وزياد التونسي وسواهم ، الذين يرجع اليهم الفضل في نشر المذهب المالكي بالغرب الاسلامي .

8) ما قام به زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، المعروف بشبطون (ت 204 هـ) من تفقيه اهل الاندلس في مذهب مالك ، وتعليمهم مسائل الحلال والحرام ووجوه الفقه والاحكام ، فكرس حياته لهذا العمل التثقيفي، فهو يعتبر الموطد الاول للمذهب المالكي فى الاندلس ، وقد ساعده على ذلك، مستواه العلمي الرفيع وتقواه ، وصلته الوثيقة بالامير هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل (172 ـ 180 هـ) يقول هشام هذا ، في حق زياد : « صحبت الناس وبلوتهم ، فما رأيت رجلا يسر من الزهد أكثر مما يظهر الا زياد بن عبد الرحمن ، ويردد هذا الدعاء : « اللهم أعني على طاعتك بمثل هذا » يعني زيادا (21) .

ويجرنا الحديث هنا الى نقطة تتعلق بأول شخص ادخل موطأ مالك الى الاندلس ، فالذي ادخل كتاب الموطأ أولا الى أرض الاندلس هو الغازي ابن قيس (ت 199 هـ ــ 814 م) زمن عبد الرحمن الداخل (ت سنة 172هـ)

---

(19) المدارك ج : 4 ، ص : 51 ، ط. الرباط .
(20) نفس المصدر ج : 1 ، ص : 26 .
(21) علماء الاندلس لابن الفرضي ج : 1 ، ع : 456 ، ط. مدريد ، انظر معه المدارك لعياض ص : 116 ، ط. الرباط .

يقول ابي القوطية (ت 327 هـ) وفي أيام عبد الرحمن بن معاوية ، دخل الغازي بن قيس الاندلسي بالموطأ ، عن مالك بن انس رحمه الله ، وقراءة نافع بن ابي نعيم ، وكان مكرما ومتكررا عليه بالصلة في منزله (22).

ويذكر المقري (23) : « ان أول من ادخل موطأ مالك الى الاندلس مكملا متقنا ، هو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون » .

وهنا يأتي استشكال المستعرب الاسباني (انخل بالينشيا)في كتابه(تاريخ الفكر الاندلسي) ، اذ يقول : « ما زالت مسألة من ادخل المالكية الى الاندلس غامضة ، ويقال ان زياد بن عبد الرحمن ، كان أول من أدخل المالكية الى الاندلس ، أما ابن القوطية فيقول : ان اول من أدخل الموطأ الى الاندلس هو الغازي بن قيس » (24) .

في الواقع ، انه لا غموض ولا اشكال في هذين النصين ، وانما حصل له غلط بين دخول الموطأ الى الاندلس وبين دخول المذهب المالكي ، ومن هنا جاء هذا الاشكال والغموض .

فدخول « الموطأ » ككتاب ، ليس هو دخول المذهب كتطبيق عملي ، لما في الكتاب ولما جاء من أقوال مالك وفتاويه على يد صفوة تلاميذه .

وما من شك في ان دخول الموطأ الى الاندلس على يد الغازي بن قيس كان قبل رحلة زياد الى مالك ، لان الغازي هو اول من أدخل الموطأ الى الاندلس ككتاب ، حيث كان حاضرا زمن جمعه من مؤلفه مالك ، فكان بذلك أول من أدخله اليها على صورته الاولى ، أي قبل تهذيبه وتنقيحه من مؤلفه الامام مالك .

يقول عياض (25) : « والغازي هو أول من أدخل موطأ مالك وقراءة نافع الى الاندلس ، وشهد مالكا وهو يؤلف الموطأ » .

---

(22) كتاب « افتتاح الاندلس » ص : 58 ، تحقيق الاستاذ عبد الله انيس الطباع .
(23) نفح الطيب ج : 2 ص : 45 ، تحقيق د. احسان عباس .
(24) ص : 417 ـ 418 ، ترجمة د. حسين مؤنس .
(25) المدارك ج : 3 ص : 114 ، ط. الرباط .

أما زياد شبطون ، فقد رحل الى الشرق للمرة الثانية بعـــد عـــودة الغازي بن قيس ، حيث اتى زياد هذا بكتاب الموطأ الى الاندلس بعد مـــا هذبه ونقحه مالك ، واعاد فيه النظر ، فزاد فيه وحذف منه ، فكان زيـــاد بذلك أول من ادخله الى الاندلس مكملا متقنا ، فكانت الاولية بهذا الاعتبار، وذلك في امارة هشام بن عبد الرحمن الداخل (172 ـ 180 هـ) .

يقول يحيى الليثي (26) : « زياد أول من أدخل الاندلس علم السنن ومسائل الحلال والحرام ، ووجوه الفقه والاحكام ، وهو اول من عـــرف بالسنة فى تحويل الاردية فى الاستسقاء » ، ولزياد عن مالك فى الفتاوي،كتاب سماع معروف بسماع زياد .

9) مكانة يحيى بن يحيى الليثي (ت سنة 234 هـ) لدى أمـــراء الدولة الاموية بالاندلس ، وخاصة فى امارة عبد الرحمن بن الحكم الربضي (ت 206 ـ 238 هـ) ، اذ كان له دور فعال فى اختيار القضاء على مذهبه المالكي ، فأتم لذلك ما بداه شيخه زياد شبطون .

رأي الامام ابن حزم الاندلسي الظاهري في انتشار المذهب المالكي :

يقول (27) : مذهبان انتشرا فى بدأ امرهما بالرياسة والسلطـــان : مذهب ابي حنيفة ، فانه لما ولي القضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق الى اقصى عمل افريقية ، فكان لا يولي الا أصحابـــه والمنتسبين لمذهبه ، ومذهب مالك عندنا بالاندلس ، فان يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الاندلس الا بمشورته واختياره ، ولا يشير الا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا ما يرجون بلوغ أغراضهم ، على أن يحيى لم يل قضاء قط ، ولا اجاب اليه ، وكان ذلك زائدا في جلالتـــه عندهم وداعيا الى قبول رأيهم لديه .

فهذا كلام لا يحتاج الى شرح او تعليق ، فهو كاف وحده في تفسير نشر المذهب المالكي ببلاد الاندلس من طرف يحيى الليثي ، لان ابن حزم معروف بالصدق والصراحة .

---

(26) المـــدارك ، ج : 3 ، ص : 117 .
(27) نظـــم الطيـــب ج : 2 ص : 10 .

نعم ، كان يحيى الليثي بالاضافة الى أمانته ومتانة دينه ، وامامته في العلم ، معظما لدى الامراء،لا يقطعون فى أمر من امور الديانة الا بعد مشورته، خاصة ما يتعلق بشؤون القضاء والافتاء ، فقد كان المرجع الاول في تعيين القضاة وعزلهم ، ومن الطبيعي الا يشير الا من هو على المذهب المالكي الذي يعتقد رجحانه وصوابه ، لانه شريك لكل من القضاة فى المسؤولية والحكم .

يقول الحافظ بن عبد البر (28) : « كان يحيى امام أهل بلده المقتدى به المنظور اليه المعول عليه ، وكان ثقة عاقلا حسن الهدي والسمت ، يشبه سمته سمت مالك ، ولم يكن له بصر بالحديث » .

وكذلك جرى الامر في انتشار المذهب المالكي بافريقية ـ تونس ـ لما تولى القضاء بها الفقيه عبد السلام سحنون (ت سنة 240 هـ) الذي صار يعين مساعديه ومن هم على مذهبه الفقهي ، فنشأ الناس على المذهب المالكي وعملوا على مقتضاه .

ومما لا شك فيه أن سلطان الدولة ، كان له الاثر القوي في نشر المذهب المالكي ببلاد الغرب الاسلامي ، فان السلطة لها وسائلها الخاصة في نشر أي مذهب ارادت ومتى شاءت ، سواء في القديم او العصر الحديث. فالعباسيون فرضوا المذهب الحنفي على شعوبهم ، وكذلك امويو الاندلس ، الزموا الناس بالمذهب المالكي ببلاد الاندلس ، والدولة المرابطية عممته وأمرت به في جميع انحاء مملكتها ، وهكذا نرى كل دولة من الدول ، قديما او حديثا الا وتفرض مذهبها على شعوبها سواء كان دينيا او سياسيا او اقتصاديا .

وهنا الاحظ ان الدكتور الجراري ، فسر كلام ابن حزم بما يلي : « والمقصود بيحيى ، هو يحيى الليثي ، أحد تلاميذ مالك المباشرين ، وبالسلطان ، هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضى » (29) .

وهذا سبق قلم من الدكتور الجراري ، فان السلطان الذي يعنيه ابن حزم هنا ، هو عبد الرحمن بن الحكم الرضي ، لا جده هشام الرضي ،

---

(28) المدارك ج : 3 ص : 383 ، ط. الرباط.الانتقاء فى فضائل الثلاثة الائمة الفقهاء لابن عبد البر ص : 60 ، ط. دار الكتاب العلمية ـ بيروت .
(29) وحدة المذهب خلال التاريخ ص : 26 ، نشر دار الثقافة ـ البيضاء .

وذلك ان هشاما كانت ولايته من سنة : (172 ـ 180 هـ) ، وفي هاتـه الفترة ، كان يحيى الليثي يتردد على الشرق ، للاخذ عن مشايخه الكبـار كمالك ، والليث وابن القاسم وغيرهم .

يقول المقري في نفحه (30) : « وقدم يحيى الاندلس أيام الحكـم (180 ـ 206 هـ) فانتشر به وبزياد وعيسى بن دينار،علم مالك بالاندلس ».

ويروي عياض عن مالك (31) : « فخرج يحيى بعد ان استسلف زياد له مالا ، اذ رغب عن مال ابيه ، ومضى فحج ، وسمع مالكا والليث ، وكان لقاؤه لمالك سنة تسع وسبعين ومائة ، السنة التي مات فيهـا مالـك ، وانصرف الى الاندلس » .

ويزيدنا عياض بيانا فيقول (32) : « وكان الامير عبد الرحمن بـن الحكم يبجل ـ يحيى ـ تبجيل الاب ، ولا يرجع عن قوله ، ويستشيره في جميع أمره وفيما يوليه ويعزله ، فلذلك كثر القضاة في مدته ، وكان يفضل بالعقل على علمـه » .

ويقول ابن حيان في هذا الصدد (33) : « وغلب يحيـى بن يحيـى جميعهم ـ أي الفقهاء ـ على راي الامير عبد الرحمن ، فصار يلتزم مـن اعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ، ما يلتزمه الولد لابيه ، فلا يستقضي قاضيا ولا يعقد عقدا ، ولا يمضي في ديانة أمرا الا عن رأيه وبعد مشورته ، فقد كان يشير بقاض فيوليه الامير عبد الرحمن ، فاذا انكر عليه شيئا اشار على الامير بعزلـه فيعزلـه » .

ويروي ابن القوطية في كتابه فيقول (34) : « وكان يلتزم الامير عبد الرحمن ، من اعظام يحيى بن يحيى ، وبره ما لا يلتزمه الا الابن البار للاب الحاني ، وكان لا يولي القضاء أحدا الا عن رأيه » .

---

(30) ج : 3 ص : 46 ، تحقيق د. احسان عبـاس .
(31) المـدارك ج : 3 ص : 380 ، ط. وزارة الاوقاف .
(32) المدارك ج : ص : 382 ، ط. وزارة الاوقاف ـ الرباط .
(33) المقتـبس ص : 180 .
(34) تاريـخ افتـاح الانـدلس ص : 80 .

ثم ان يحيى الليثي كان مبتعدا في زمن الحكم الربضي (180 — 206 ه) وفر بنفسه الى طليطلة ، حيث اتهم بالمشاركة في وقعة الربض (35) .

« وكان يحيى ممن اتهم بالاجلاب في الهيم بقرطبة على الامير الحكم بن هشام ... وكان ممن فر عنه عيسى بن دينـــار ، ويحيى بن يحيـــى ... وكان قد كتب الى الحكم يطلب منه الامان فاستجاب له ، وعاد الى قرطبة أ خريات أيام الحكم ، فلم يزل تحت كرامة بقية أيام الحكم وايام ولـــده ، وشهر فضله وعلمـــه » (36) .

وفي أيام عبد الرحمن بن الحكم أصبح يحيى بن يحيى رجل الدولة الاول (37) .

ازاء هاته النصوص المتفقة في مضمونها وفحواهـــا ، يتبين لنـــا ان يحيى الليثي كانت له مكانة وحظـــوة لـــدى عبـــد الرحمـــن الاوسط (206 — 238 هـ) لا عند هشام الرضى جده (172 — 180 هـ) .

والاستاذ الجراري انساق — فيما يظهر — مع المستعرب الاسباني « انخيل كنثالث بالينثيا » الذي يقول في كتابه (الفكر الاندلسي) (38) : « ومن الثابت على أي حال ، ان مذهب مالك ثبت في الاندلس وعلى أمـــره فيه ، وعلى أيام هشام الرضى ، بسبب المكانة الرفيعة التي حظي بها يحيى الليثي عنده ، وكان يحيى من تلاميذ مالك المباشرين وكان متعصبا لمذهبه، وكان هشام يشاوره في أمور القضاة ، فلم يكن يولي الا المالكييـــن » . فالمستعرب الاسباني (انخيل) لم يتثبت ولم يستوعـــب النصـــوص ويستقصيها من معينها ، لهذا حصل له هذا الخطأ البين ، حيث زعـــم أن الفقيه يحيى الليثي ، كان له الامر والشأن زمان هشام الرضى ، مـــع أن النصوص التي مرت بنا ، اثبتت خلاف ما ادعاه ، بل الحظوة كانت ليحيى زمن امارة عبد الرحمن بن الحكم لا هشام الربضي الجد .

نعم ان مذهب مالك أصبح ينتشر انتشارا كبيرا بالاندلس من عهـــد هشام الربضي ، والذي كان له الدور الفعال في هذا الانتشار في هاتـــه الفترة ، هو الفقيه زياد عبد الرحمن شبطون شيخ يحيى الليثي كما تقدم .

---

(35) انظر نفـــح الطيـــب ج : 2 ص : 11 .
(36) المـــدارك ج : ص : 392 — 393 ، ط. وزارة الاوقاف — الرباط .
(37) انظـــر شيـــوخ العصـــر لمؤنس ص : 22 .
(38) ص : 417 ، ترجمة حسين مؤنس ط. 1 — 1955 — القاهرة .

10) الاعجاب المتبادل بين الامير هشام الرضى ، وبين الامام مالك ، وذلك راجع لما كان ينقله طلاب العلم الاندلسيون ، عن سيرة هذا الامير وحسن سلوكه ومعاملته الحسنة ، الى عالم المدينة ، فقال مالك منوها به : « ليس الله زين سماءنا بمثل هذا » ثم ما كان ينقله هؤلاء الطلاب بدورهم من فضائل مالك ومزياه وعلمه الغزير الى هشام الرضى ، مما جعل الرجلين يزداد اعجابا وتقديرا لصاحبه ، وهذا ما جعل الامير هشاما يختار قضاته وأصحاب الوظائف الدينية من الفقهاء المالكية .

وربما كان هذا العطف المتبادل ، وهذا التنويه قبل الامير هشام هذا ، بل كان مع والده عبد الرحمن الداخل (138 — 172 هـ) حسب رواية الناصري في الاستقصا (39) ، يقول : « ... سبب ظهور مذهب مالك بالاندلس والمغرب ، ان حاج المغرب والاندلس ، قدموا على مالك بالمدينة ، فسألهم عن سيرة عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل فقيل له ، انه يأكل الشعير ويلبس الصوف ، ويجاهد في سبيل الله ، فقال مالك ليت الله زين حرمنا بمثله ، فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة ، وبلغت مقالته صاحب الاندلس فسر بها وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم » .

11) تقدير مالك واعجابه البليغ بسيرة عمر بن عبد العزيز الاموي ، (ت سنة 101 هـ) حتى انه روى بعضها وحفظها في كتابه الموطأ (40) .

وهذا التقدير من أمراء أمويي الاندلس للامام مالك ، لم يات عفوا وانما أتى بعد ما علموا من مكانته العلمية والاخلاقية ومن تقديره لهم ، لذلك فرضوا مذهبه على الامة الاندلسية جمعاء ، وجعلوه المذهب الرسمي للبلاد ، لا يقبل غيره من المذاهب الاخرى .

12) اقرار العمل بالمذهب المالكي من الامراء الاندلسيين،كان كالرد على اعتناق العباسيين لمذهب أبي حنيفة ، وذلك للمنافسة الموجودة بين الدولتين ، والعداوة المتجلية بينهما .

---

(39) ج : 1 ص : 139 ، ط. دار الكتاب .

(40) مالك لابي زهرة ص : 62 ، ط. 1

13) سير العلماء المالكية الاول ، أمثال عبد الرحمـــن بن القاسم العتقي المصري ، وعبد المالك بن الماجشون ، وعبد الرحمن زياد اللخمي المعروف بشبطون ، ويحيى الليثي ، وعبد السلام سحنون واضرابهم ، الذين كانوا نماذج في التقى والورع ، يتخلقون بأخلاق شيخهم مالك وشمائلـــه ، ويقلدونه في سمتـــه وسلوكـــه .

وهذا السلوك من هؤلاء الفقهاء الكبار ، من أعظم الاسباب في ذيـــوع مذهب مالك وانتشاره بين الناس الامر الذي جعل للمالكية في البلاد التي ساد فيها ، جزءا من السلطان السياسي ، فالمالكية اذا لم تكـن مذهبـــا فقهيا فحسب بل مذهبا سلوكيا كذلك فقد أخذ هؤلاء الاعلام عن الامـــام مالك سيرته وسلوكه ، كما أخذوا عنه علمه وموطأه .

هاته الاسباب التي مرت بنا وغيرها ، كانت من أهم العوامل فى انتشار المذهب المالكي ببلاد الغرب الاسلامي ، وفى استتبابه واستقراره بها ، فلم يبق مجال للمذهب الاوزاعي الذي دخل مع الفاتحين الاولين ، الى بـــلاد الاندلس ، الا أثر ضئيل ، كغرس الاشجار في صحون المساجـد التـــي اباحاها مذهب الاوزاعي ، وكرهها مذهب مالك وغيرها من الاشياء الاخرى القليلة التي نظمها الفقيه الكبير ابن غازي (ت سنة 919 هـ) في هاتـــه الابيـــــات :

قد خولف المذهب في الانـــدلس — في سنة منهن سهـــم الفـــــرس
وغرس الاشجار لدى المساجـــد — والحكم باليمين قل والشاهـــــد
وخلطة الارض بالجـــزء تلـــــى — كذاك رفع تكبير الاذان الاول (41)

وهكذا انصرفت الاندلس من الاوزاعية الى المالكية ، والى ذلك الامام مالك بن انس (ت 179 هـ) الذي لم يكن يخفي عطفه لبني أمية والثنـــاء عليهم والتبجيل لعظمائهم ، وهم كذلك يبادلونه هذا العطف وهذا التقدير مدة حكمهـــم بالانـــدلس .

ان هشاما الرضى (172 ـ 180 هـ) كان يوقر الفقهـــاء المالكيـــة ويقربهم اليه ، ويفيض عليهم عطاياه ، ويقدرهم ويحترمهم .

---

(41) انظر حاشية ابن الحاج على شرح ميارة للمرشد المعين ج : 1 ص : 162 .

وأما سيادة المالكية فمعناها المعروف ، تبدأ فى واقع الامر ، فى عهد ولد هشام الحكم الربضي (180 ـ 206 هـ) رجع الحكم هذا ، بعد هيج الربض وغوغائه وتمرده ، الى الفقهاء المالكية الكبار ، واجتهد في ترضيهم وجعل لهم نصيبا من الحكم معه ، ارضاء لهم واستمالتهم الى جانبه وتبعه في ذلك ، كل من جاء بعده من أمراء أمويي الاندلس (42) .

وفى أيام عبد الرحمن الثاني ولد الحكم الربضي (206 ـ 238 هـ)،أصبح يحيى الليثي رجل الدولة الاول ، فتكونت منه ومن بعض الفقهاء المالكية الكبار ، أمثال عبد الملك بن حبيب ، وعيسى بن دينار ، جماعة رسمية ، سميت بجماعة الفقهاء ، والى يحيى انتهت رئاستهم ، فوضع نظاما للقضاة، ورتب مجلسا للشورى من الفقهاء المالكية ، ومن هذا التاريخ سيصبح للفقهاء المالكية نفوذ كبير ، ومكانة مرموقة في الوسط المغربي الكبير ، الى زمن الموحدين .

ويروي ابن الفرضي فى كتابه (علماء الاندلس) (43) : «انه لم يعط أحد من أهل الاندلس منذ دخلها الاسلام من الحظوة وجلالة الذكر ، ما أعطى فيه يحيى الليثي ، فكان ملكا غير متوج » .

رأي ابن خلدون في انتشار المذهب المالكي :

أما اذا رجعنا الى ابن خلدون ، فاننا نراه يحصر أسباب انتشار المذهب المالكي ببلاد الاندلس والمغرب في سببين :

1 ـ سبب الرحلة التي كانت غالبا على أهل المغرب الى أرض الحجاز لسبب الحج .

2 ـ سبب البداوة التي كانت عنصرا ظاهرا بين أهل الاندلس والمغرب والحجاز .

يقول فى مقدمته (44) : «والامام مالك رحمه الله تعالى،فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس،وان كان يوجد فى غيرهم، الا انهم لم يقلدوا غيره، الا

---

(42) انظر شيوخ العصر لمؤنس ص : 6 ـ 26 .
(43) ج : 2 ص : 44 ، ط. مدريد .
(44) ص : 464 ، ط. التجارية .

في القليل ، لما راوا رحلتهم كانت غالبا الى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقتصروا على الاخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك ، وشيوخه وتلميذه من بعده ، فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقلدوه دون غيره .

وايضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون بالحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى أهل الحجاز أميل ، لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب ... » .

اما السبب الاول الذي ساقه ابن خلدون ظاهر ، لان جل الرحل الاندلسيين والمغاربة وغيرهم ، كانوا يقصدون المدينة المنورة ، اذ هي مثوى الرسول عليه السلام ، ومسجد ثالث الحرمين ، فهي بهذا مزار لهم ولغيرهم ، وفي نفس الوقت ، فهي مقر سكنى مالك بن أنس عالم المدينة ، فلهذا كانت مقصودة من الحجاج وطلاب العلم على السواء لهذين الغرضين ، اذ ان سبب الرحلة كان لا يختص بالمغاربة وحدهم ، فكل المسلمين من مصريين وعراقيين وشاميين وغيرهم ، يشاركون المغاربة في الرحلة الى المدينة ، ولهذا السبب بالذات ، سبب الرحلة ، كان للمذهب المالكي بمصر مكانة كبيرة ، مع ان المصريين معروفون بحضارتهم منذ الزمن القديم .

أما السبب الثاني ، وهو المشاركة بين القطرين : الاندلسي والحجازي فى البداوة ، فهذا شيء بعيد ، وذلك لان جميع المسلمين بصفة عامة ، كانت قبلتهم في التشريع الاسلامي أرض الحجاز ، حيث هي مهبط الوحي ، ومقر الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، وكبار الصحابة من بعده ، ومصدر التشريع أولا ، هو كتاب الله تعالى والسنة النبوية الشريفة .

فمذهب مالك ، يدور على هذين الاصلين ، فهما ركيزتاه ، فمنهما يستنبط الاحكام الفقهية ، شأنه شأن المذاهب السنية الاخرى .

ثم أن مدن الحجاز في هاته الفترة ، لم يعد سكانها من البدو وخصوصا العصر الاموي ، فانها كانت تنعم بالترف والنعيم ، بما كان

يفيض عليهم الامويون من خيرات ، ولذلك ظهر فيهم أبلغ الشعر الغزالي ، والغناء الحضاري بكل طرائفه ، فأمدوا به بغـداد ، حاضـرة الخلافـة العباسية (45) ، أما أهل الاندلس فهم لم يكونوا بدوا ، فحضارتهم معروفة مشهورة في جـل الميادين .

ثم ان المذهب المالكي لم يعتنقه أهل الاندلس والمغرب وحدهـم ، بل اعتنقه غيرهم من المصريين والعراقيين وغيرهم .

وابن خلدون نفسه يصرح بهذا فيقول (46) : « وكان تلاميذ ـ مالك ـ افترقوا بمصر والعراق ، فكان بالعراق منهم القاضي اسماعيل وطبقتـه ، مثل ابن خويز منداد ، وابن اللبان ، والقاضي أبي بكر الابهري ، والقاضي أبي حسين بن القصار ، والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم ، وكان بمصـر ابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم ، والحارث بن مسكين وطبقتهم » .

هذا هو كلام ابن خلدون الذي يعترف فيه بنفسه ، بأن المذهـب المالكي انتشر بين العراقيين ، كما انتشر بين المصريين ، مـع ان كليهما اصحاب رقـي وحضـارة .

« فهذه مصر عمرانها مستبحر ، وحضارتها مستحكمة منـذ آلاف السنيـن .

يأتي هنا سؤال ، لماذا انتشر المذهب المالكي بين هؤلاء المتحضرين العراقيين والمصريين ، كما انتشر بين غيرهم من الاندلس والمغرب ؟

اليس ابن خلدون هو نفسه ، قد أجاب عن هذا السؤال ؟ بأن سبب هذا الانتشار ، يرجع بالدرجة الاولى الى دور الطلاب والتلاميذ الذيـن اخذوا عن مالك علمه ومذهبه ، سواء من الشرق او الغرب ، كيفما كانـت جنسيتهم : اندلسية ، مغربية ، مصرية ، عراقية ... » .

اذا الحكم بالبداوة التي حكم بها ابن خلدون على أهل الغرب الاسلامي، هو مجرد الدعاء ، وابن خلدون هنا مبالغ في هذا الحكم على أبناء قومه .

---

(45) انظر « مالـك » لابـي زهـرة ص : 431 ، ط. 2 .
(46) المقدمـة ص : 449 ، ط. التجاريـة .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى بالمرء نبلا أن تعد معايبه

وجملة القول : ان ابن خلدون ، تسرع فى هذا الحكم القاسي ، فانه لم ينصف بني جنسه ، ولا مذهبه المالكي ، الذي ما يزال العمل به سائرا في المغرب الاسلامي ، وفي غيره من الاقطار الاسلامية ، منذ أواسط القرن الثاني الهجري الى زماننا هذا ، رغم المحاولات في القضاء عليه من طرف العبيديين والموحدين ، وما زال قائم الذات الى الآن ...

وهنا رأي للقاضي عياض ، في سبب انتشار المذاهب ، يقول (47) : « اختلفت الآراء والهمم ، فهي تعين المقلد من الائمة ، حسب ما اعتقدوا فيه انه هو الاعلم والاولى بالاتباع ، اما من اعتقاد اعتقدوه ، او انتشار ذكر وثناء سمعوه ، او اتباع له اعتمدوه واتبعوه ، او من تقليد لآبائهم أو أهل بلادهم نشأوا عليه والفوه » .

وهناك شيء آخر غير الاسباب التي مرت بنا في انتشار المذهب المالكي وذلك ان هذا المذهب ، كانت جذوره عميقة في المجتمع المغربي الكبير ، وكان التأييد لهذا المذهب منتشرا على جميع المستويات الاجتماعية ، اذ نجد كتب التراجم المتعددة من « تاريخ العلماء والقضاة » لابي الفرضي و « الصلة » لابن بشكوال ، و « التكملة » لابن الابار ، و « الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي ، و « النفح » للمقري وغيرها ، مملوءة بتراجم وعناوين لمؤلفات كثيرة ، لعدد كبير من الفقهاء والعلماء المالكيين ، بل اكثر من هذا ، نجد ان النشاط الدائب ، والانتاج الوفير لمؤلفات هائلة ، كانت في ميادين شتى ، ولكنها جميعا كانت في ظل المذهب المالكي .

لهذا كله ، نرى استمرارية المذهب المالكي في المغرب وفي أعماق المغاربة الى الآن ، رغم تلك المحاولة التي قام بها الموحدون ضده ، وفي طليعتهم يعقوب المنصور الموحدي من أصدار كتب المذهب المالكي وحرقها والتنكيل بفقهائه ورجاله ، ففشلت محاولة الموحدين ورجع المذهب المالكي الى عالمه الاول ، بفروعه ومسائله واقواله منتصرا ، وردت له مكانته الاولى واعتباراته من زمن المرينيين ، واصبح يعمل به رسميا في الاوساط المغربية الى زماننا هذا كما كان من ذي قبل ، وما ذلك الا لصمود رجاله وفقهائه واستماتهم ، ولما له من مكانة وأصالة عريقتين .

---

(47) انظر المدارك ج : 1 .